

العنصرية البيولوجية: كيف يمكن للخطاب العلمي أن يتحول إلى أداة للانتقاء؟ Biological racism: How scientific discourse can become a tool of selection?



بوسكرة علي¹، عامر إيمان²

جامعة سطيف2، مخبر تطوير الخطاب الفلسفي والتنمية الثقافية والاجتماعية في الجزائر، الجزائر

a.boussakra@univ-setif2.dz

جامعة 8 ماي 1945 قالمة، الجزائر.

ameur.imene@univ-guelma.dz

تاريخ الإرسال: 2025/ 06/21 تاريخ القبول: 2025/07/20

ملخص:

يشكل العلم الى كونه أساس الحضارة الإنسانية وبه ارتقت، خطابا آخر وهو خطاب سياسي اجتماعي بامتياز لأنه مرتبط بالسياق الاجتماعي وانحيازاته، ومتفاعل معه، كذلك وليس مترفعا عنه كما يزعم الكثير أن العلم خطاب موضوعي، فقد استخدم العلم عامة وعلم البيولوجيا خاصة ضمن سياق استخدامات عنصرية توحدت كلها حول نشر فكرة التفاوت الاجتماعي وحرب الأعراق من خلال تصفية المجتمعات والبحث عن العرق السامي كما فعلت النازية، واستخدام البيولوجيا في أغراض أيديولوجية والاستجابة للتحيزات والأهواء والمصالح التي تركز تفوق العرق الأبيض والتصفية الجماعية واختيار الصفات المميزة المرغوب فيها ونفي المجتمعات الأخرى، ناهيك عن عمل السياسة الحيوية في تنظيم المجتمعات، خاصة في الفترة المعاصرة مع التطور التقني واستعمالاته في التصفية العرقية، مما يسبب انتشار خطاب الكراهية والعنف والتمييز العنصري بين الآخرين ونشر ثقافة الاستبداد واللاتسامح.

الكلمات المفتاحية: البيولوجيا، العنصرية، العلم، الأيديولوجيا، العرق.

Abstract :

Science constitutes the basis of human civilization and with it has risen, another discourse, which is a political and social discourse par excellence, because it is linked to the social context and its biases and interacts with it as well, and is not above it, as many claim that science is a topical discourse. Spreading the idea of social inequality and race war through the liquidation of societies and the search for the superior race as did Nazism and the use of biology for ideological purposes and responding to prejudices, whims and interests that perpetuate white supremacy and collective liquidation and the selection of desirable characteristics and the exclusion of other societies, especially in the contemporary period with technological development, which causes Spread of hate speech, violence and racial discrimination and Spreading a culture of tyranny and intolerance.

Key words: Biology, racism, science, ideology, race.

* المؤلف المراسل : بوسكرة علي.

مقدمة:

سعى الإنسان دوماً إلى بلوغ الكمال الإنساني والوصول إلى درجات معينة من القوة، كصفات البطل الخارق في شخصيات الآداب الرومانية واليونانية القديمة، فقد حلم دوماً بالتطور واكتساب صفات قوية خارجة عن الطبيعة الإنسانية من أجل أهداف معينة، وقد سعى الفلاسفة في خطاباتهم إلى الإشادة بالمواطنين الأقوياء والأفراد الذين يتمتعون بصفات مميزة في إقامة الدول المشيدة، وينحى في نفس المنحى أصحاب التوجهات السياسية خاصة إلى إقامة دول وحكومات تبني على مواطنين يمتلكون صفات ممتازة ويرفضون الأفراد الضعفاء أو الذين يعانون من مرض عضوي يمنعهم من أداء مهامهم المدنية أو لأن الدولة تحتاج الأقوياء لأنها بحاجة إلى جنود خارقين تستند عليهم في محنها، وتفتخر بهم وتجعل منهم ذريعة حربية أو يد عاملة مؤهلة اقتصادياً. وهكذا تكتسي الصدارة من بين جميع دول العالم وتختلف المصالح في الرغبة بالترقي بالإنسان وجعله موازياً لإنسان السوبر هيرو، الذي يتمتع بصفات غير طبيعية، ومع التطور العلمي الذي شهدته الحداثة أصبح الإنسان يعمل يومياً من أجل اكتشاف المزيد ومع كل اكتشاف ينهر بمقدرة العلم على الكشف على العديد من الأمور التي كانت تبدو له مستعصية فقد اكتشف الكثير من الأمراض وشيد الحضارات وحقق أحلاماً كانت مستحيلة كحلم القضاء على العقم والتمتع بالحياة مع الأطفال، ومع باقي الاكتشافات العلمية في مجال البيوتكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية أصبح حلم التقدم ممكناً من خلال خلق صفات وراثية فائقة وأصبحت الدول تتنافس على ذلك من خلال رفض الأفراد الذين يعانون من عاهات وإبعادهم واختيار الأفراد الأقوياء فقط وبالتالي التمييز بين الأفراد، وكذلك سياسة الدول في التسابق نحو جعل العرق السامي هو السائد على حساب العوالم الأخرى، وبالتالي انتشر بما يعرف بالعنصرية البيولوجية وتفشي ذلك بصورة أخرى معبرة عن نوع جديد من العنصرية بالرغم من قدمه إلا أنه أصبح هدفاً للأمم والحكومات التي تملك زمام الأمر وتمتلك التكنولوجيات الحديثة وبإمكانها التطبيق على مستوى المخابر وتعمل على تحسين السلالة وبالتالي تنتشر العنصرية والتمييز وتعمل على إقصاء الشعوب وبالتالي ينتشر العنف والكراهية والاستعلاء والاستبداد اتجاه الشعوب المهمشة خاصة فيما سيؤول إليه عالم اليوم مع مشاريع البيوتكنولوجيا المتطورة الكامنة في الإنسانية الفائقة وما ستحدثه من مفارقات في الطبيعة الإنسانية عبر التمييز العنصري بصورة أخرى، ومنه نطرح التساؤل التالي: كيف تحول العلم إلى غاية عنصرية وخطاب أيديولوجي، مكرساً لفروقات للإنسانية؟

اذ تكمن أهمية الإشكالية في تبيان الدور الآخر للعلم، باعتباره سلاح ذو حدين، فبالرغم من كل ما قدمه للبشرية، لكنه يقف اليوم في سبيل تحديث العنصرية وجعلها علمية وبيولوجية، تهتم بالعرق والدم، وتُحدث فرقا بين الأجناس.

وتتحدد هذه الإشكالية في سبيل توضيح أهداف مُعينة، من أبرزها:
-توضيح التطورات العلمية والبيوتكنولوجية الهائلة، وقدرتها على تغيير الواقع، بما في ذلك الإنسان.

-وصف الطابع الماهوي للعلم، كونه ممارسة مُسيسة، ومُسخرة لخدمة أغراض مالكيها.
-تعزيز العنصرية البيولوجية داخل المجتمعات، لأن العلم يُشكل أساسا لهيمنة عرق على آخر، عبر التقنيات الحديثة المستخدمة في مجال البيولوجيا بأداتها الصارمة شديدة الدقة والتعقيد.
-تبيان كيف أن المجتمع اليوم يعيش سياسة حيوية، فالسلطة تُنتج وتقمع، وتتحكم باسم الحياة، وبالتالي دخول الحياة الإنسانية في لعبة سياسية كبرى.

-رؤية أخرى لمعارك الحياة اليوم، فقد انتقلت البشرية من معارك السلاح الى معارك البيولوجيا، وحروب المناعة، وعودة العنصرية بوجه جديد، يُكرس للعنف والكراهية والتنافر بين شعوب الأرض.
أما بالنسبة للمنهجية المعتمدة في مقالنا هذا، فقد اعتمدنا على المنهج التحليلي النقدي، الذي تبرزه طبيعة الموضوع، الكامنة في تحليل الجانب الآخر للعلم، كخطاب متعدد الاختصاصات، ونقد الممارسات العميقة التي أحدثها بكافة وسائله، مُنتجا لخطاب عنصري، يُشكل تحدي فكري وأخلاقي وإنساني كبير.

1. رؤية فلسفية حول خطاب الكراهية والعنف:

يعد خطاب الكراهية خطابا يتنافى مع الإنسانية بصفة عامة لأنه يحمل في طياته دعوة صريحة الى العنف وكره الآخرين ونبذهم وعدم التسامح معهم والدعوة الى الاستبداد وكل أنواع الظلم كما يعمل على نشر جميع أنواع التمييز العنصري ويساعد على تفشيها داخل طبقات المجتمع وبالتالي سيسود الصراع بين الأفراد وتنتشر الانانية وتفقد الإنسانية جزءا كبيرا من إنسانيتها.

وقدم مجلس أوروبا تعريفا للخطاب الذي يحرض على الكراهية على أنه جميع أشكال التعبير الى تنشر أو تحرض على الكراهية العرقية وتدعو الى نشر المعاداة وتضم كل اشكال الكراهية المبنية على التعصب كإعلان الانتماء للزعة القومية والاثنية والتمييز والعداء للأقليات والمهاجرين وغيرها من أشكال العنصرية الأخرى. (حمادي محمد، 2021، صفحة 18)

ويمكن تصنيف خطاب الكراهية على أنه أي حديث أو خطاب يعمل على بث روح الكراهية وأساليبها المختلفة بين الناس واثارة النزاعات والصراعات المبنية على أساس العنصرية واللون والعرق والطائفية ونبد الآخر والتحريض على عدم الاعتراف به وممارسة العنف على الآخرين واتهامهم بتهمة الأفعال الشنيعة من أجل رفضه من قبل الآخرين وبالتالي يعمل على تفكيك أهم الروابط الإنسانية. (عطية عبد الرزاق عماد، 2021، صفحة 48)

ويشغل خطاب الكراهية مساحة عريضة في الخطاب الفلسفي فقد أسس الفلاسفة باختلاف توجهاتهم وتصوراتهم لهذا المفهوم مفاهيم وتنظيرات متنوعة، فللكراهية جذور فلسفية متنوعة تمتد من عصر الى آخر بحسب الحاجة أو بحسب غرض تجسيد هذا الخطاب، فهو مفهوم يختلف بحسب تنوع مجال الغرض الذي يتكون فيه الخطاب فيمكن أن يكون وليد تراكمات أو هو نتاج حاجة ماسة فرضتها الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية أو حتى الشخصية.

وتعتبر الكراهية في الفلسفة عضو أساسي في عائلة مفهومية أوسع نطاقا تضم مثلاً كراهية الإنسان - ميزونثروبيا - و"كراهية العقل" - "ميزولوجيا" (أفلاطون، كانط) أو الغضب (حسب أرسطو)، أو الشرّ (ديكارت)، أو الحزن (حسب سبينوزا)، أو شقاء الغير والتألم لسعادته (هيوم)، أو الضغينة (نيتشه)، أو التمرد (كامو)، أو الفشل في إلغاء الآخر (سارتر)، أو مركّب من الرغبات والاعتقادات (الفلسفة التحليلية)، إلخ. وبالتالي، لا يمكن تحديد مفهوم الكراهية من دون معرفة مصدره كما أن هناك منطق للكراهية يجعل علينا أن نفهمه كما يقول نفسه، وليس كما نرفضه. الكراهية ليست مجرد حكم قيمة فقط. بل هي علاقة بشرية متسقة جداً، وجهاز معنى قائم الذات (جبايلي، 2019).

هكذا إذن يختلف مفهوم الكراهية عند الفلاسفة حسب الرؤية السائدة لتصوراتهم الفلسفية العامة فقد أعلن البعض خطاباً يدعو الى نشر العدوانية والكراهية في مقابل من نشر خطاب المحبة أي على أنقاض الكراهية. "ولقد حظي خطاب الكراهية بدعم فلسفي على مدى عصور متلاحقة تفاوتت في درجة الدعوى اليه والاعلان الصريح له، خاصة عندما تتحالف الفكرة مع التجيش والتعبئة الاجتماعية والإعلامية وكذا السياسية، وإن يكن وبغض النظر عن هذا الحضور البارز والمتواري للكراهية في الوسط الفلسفي، فإن النتيجة أن هذا الوسط كانت تأطيرا قويا لوجودها وتكلسها" (حمدي شهرزاد، 2021، صفحة 311) فقد اختلفت الدعاوي المناهضة للكراهية خاصة في المجتمعات التي تمجد العنصرية كما تتعزز المواقف حينما يعمل المجتمع بشعبه واعلامه على مساندة تلك المواقف ناهيك عن موقف الدولة الايجابي حيال هذه المواقف، خاصة حين تساند تلك الخطابات وتجعلها دعامة أساسية في المجتمع أو معيار تعمل على أساسه الحكومة وهذا لخدمة أغراض سياسية مختلفة.

وتبرز في الخطاب الفلسفي الكثير من المواقف التي تبرر لخطاب الكراهية عبر تاريخ طويل انتشر في كل عصر، ومن أبرز من اقترن اسمه في قاموس الفكر الفلسفي بالكراهية هو الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche 1844-1900 الذي كافح ضد الأوضاع السائدة في عصره معلنا موت الاله والحقائق المطلقة واليقينيات القابعة في الديانات على رأسها المسيحية التي أسست لأخلاق باطلة وزرعت وهم الثوابت التي تقيد حرية الفرد وتجعله تابعا له ولخدمة مصالح الكنيسة التي جعلت من الجميع يسير وفقا لمنطق القطيع وخلفت عبدا فاقدين لقيمة القوة التي ألح نيتشه عليها من أجل الاستمرار في الحياة بدون قيود الأنظمة الاجتماعية والديمقراطية والشيوعية وغيرها التي تشيء الفرد وتجعله يسير وفقا لنظام الهيمنة من هنا دعا نيتشه الى إقامة قطيعة مع السرديات الكبرى واليقينيات والتأسيس لأخلاق القوة وبالتالي هناك دعوة صريحة الى إقامة نظام سياسي وقانون عام للحياة قائم على الكراهية ومعاداة الآخر والعنف.

2. العلم بوصفه أيديولوجيا:

يعد العلم حلقة تراكمية من الأفكار والمعارف التي من شأنها الرقي بالإنسان وتغيير حياته نحو الأفضل، وهو بذلك في تطور مستمر، ويعد العلم أحد المؤسسات التي قد تستخدم في شرعنة الواقع، باعتباره المنهج الذي يسعى للوصول لنتائج موضوعية والذي يسعى لإبعاد انحيازات الأفراد والتزهد منها، لكن الواقع يحيل دون ذلك، لأن العلم ليس جهة متعالية بل هي جهة متأثرة بالسياق الاجتماعي بشكل صريح وواضح أو غير مباشر (ليفونتين ريتشارد، 2019، صفحة 11)، فالعلم كغيره من المؤسسات المنتجة مرتبط بالمؤسسات الاجتماعية الأخرى ويتأثر بها لأنه يخوض في مشكلات لها علاقة كبيرة بالمجتمع كما يأخذ بعض الأحكام من المجتمع ويتأثر بشدة بالأحكام المسبقة المأخوذة من المجتمع الذي نعيش فيه (ليفونتين ريتشارد، 2019، صفحة 19). فهناك بعض العلوم تتخذ عينات من الوسط الاجتماعي وتقوم بدراسته وبالتالي تختلف النتائج كما يتأثر بالأحكام المسبقة السائدة في التفكير الجمعي وبالتالي لا يمكنه أن يكون منزها من الاحكام الاجتماعية بصفة مطلقة.

إضافة الى أن العلماء المسؤولين بالدرجة الأولى عن العلم هم ليسوا علماء فقط بل كائنات إنسانية واجتماعية متأثرة بالأسرة والمجتمع والدولة وبكافة ميادين الحياة كما أنهم عبارة عن كتلة من المشاعر وبالتالي لا يمكنهم التخلي عن ذاتيتهم وعواطفهم ومشاعرهم بكل سهولة، كما ينظرون الى العالم بعدستهم الشخصية التي صاغت تجارتهم الاجتماعية (ليفونتين ريتشارد، 2019، صفحة 19)، إضافة الى تلك التحيزات الشخصية" فالعلم أيضا يصوغه المجتمع، لأنه نشاط انتاجي انساني يتطلب وقتا ومالا، وتحكمه لأجل ذلك ذات القوى التي تتحكم بالمال والوقت في العالم" (ليفونتين ريتشارد، 2019، صفحة 19)

يحتاج العلم الى رأس المال والمساحة الكافية لتطبيق النظريات العلمية والدولة هي التي تملك هكذا صلاحيات لتطبيق النظريات العلمية وبالتالي فالعلم يحتاج الى سلطات عليا تتحكم فيه فهو مرهون بها وله وقت محدد أحيانا، كما أن التطور العلمي مرهون بمدى تمويل الدولة مخابر البحث والا لن يتقدم بما أنه مفتقر للوسائل والآليات الضرورية، فالعلم له دور في انتاج السلع كما أنه غاية ووسيلة في الوقت ذاته يمثل وسيلة لإنتاج السلع وسلعة أحيانا.

ويؤكد ماكس فيبر "أن العلم احتراف أو حرفة وممارسة من أجل احراز التقدم في المجالات العلمية والعملية التي تتطلبها الاحتياجات الاجتماعية وتكاليف المعارف الحديثة من أدوات المختبر ووسائله والتي لا يجدي فيها العمل الفردي بل هي بحاجة الى العمل الاجتماعي" (ماكس فيبر، 2011، صفحة 13) وبهذا فالعلم لا يمكنه أن يتحدد ويعمل بمعزل عن المحيط الاجتماعي بل هو وليد العمل الجماعي الذي يتقدم من خلاله العلم وبالتالي لا يمكن فصله عن الاطار الاجتماعي الذي يتكون فيه ومن خلاله واذن فهو يتعرض الى مؤثرات اجتماعية مختلفة، "ومهما ادعى العلم أنه متعال على المجتمع كما ادعت الكنيسة من قبله، سيظل مؤسسة اجتماعية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، مؤسسة تعكس وتكرس القيم السائدة، ووجهات النظر المهيمنة في المجتمع في كل حقبة تاريخية" (ليفونتين ريتشارد، 2019، صفحة 26) بمعنى أن العلم يواكب القيم ووجهات النظر السائدة في المجتمع ويعمل مصالحه ويعمل جاهدا على تلبية متطلبات رجال الدولة، كما أنه يمشي وفقا لمسار الرؤية الجمعية، فاذا كان المجتمع هدفه تسخير العلم لخدمة مصالحه ورؤاه الشخصية، فكان لزاما على العلم أن ينساق وراء ما تمليه عليه السلطات العليا، ولقد بينت مواقف تاريخية كيف أن العلم عمل تحت اطار ما يسمى بنشر الكراهية والعنف داخل الاواسط الاجتماعية من خلال محاربة الأقليات وممارسة التمييز العنصري بشتى الوسائل لعل أبرزها الآن العلم، اذن كيف يعمل العلم في حدود نطاق العنصرية؟.

3. العنصرية البيولوجية ودورها في تفشي ظاهرة العنف الاجتماعي:

إن المجتمع الغربي هو مجتمع عنصري منذ آلاف السنين خاصة خلال فترة الحربين العالميتين الأولى والثانية، أين غذيت العنصرية بأفكار هتلر وادعاءات النازية والفاشية وكذلك التاريخية أفكارهم عن الجنس الآري الذي اعتبروه من انقى الأجناس لأنه حامل للصفات المتميزة حسب نظرهم.

كادت العنصرية أن تقضي على نصف سكان العالم من خلال الجرائم التي قامت ضد السود لا لشيء الا لأن بشرتهم قاتمة اللون وبالتالي استبعدوا من الوسط الإنساني من خلال جرائم شنيعة في حقهم وتشبيههم بالحيوانات كالقردة والشمبانزي والنفور منهم وجعلهم كوسائل لحمل الأثقال.. الخ فالتاريخ لا يرحم إزاء الممارسات العنصرية التي شهدها العالم، كذلك الدعوة للعنصرية من قبل

مفكرين على رأسهم هتلر الذي مارس أشد أنواع التهريب والنفي من خلال محرقته ضد اليهود وحددت العنصرية النازية كيف يعامل النازيون الناس في ألمانيا. حصل الأشخاص الذين حددهم النازيون على أنهم آريون على مزايا. أما أولئك الذين حددهم النازيون على أنهم غير آريين (بما في ذلك اليهود) فتعرضوا للتمييز. على سبيل المثال، جردت قوانين نورمبرغ للسجلات اليهود من حقوق المواطنة. كما حظرت القوانين ما يسمى بالاختلاط العرقي. وأجرى النازيون عمليات التعقيم الإجباري على مجموعات محددة. ومنعوا الأشخاص ذوي الإعاقة وطائفة الروما والألمان ذوي البشرة السوداء من التكاثر. (موسوعة الهولوكوست، 2022)

وتُستغل البيولوجيا العنصرية سياسياً حتى وإن كان من الصعب بكثير التعرف السريع على المدافعين عنها في عالم العلم البيولوجي حالياً، لأنهم يختبئون وراء الكثير من الذرائع كحق التعدد والاختلاف العلمي والتعبير عن الرأي وصوغ فرضيات ومحاولة البرهنة عليها، وما يجب فهمه هو أن أصحاب نظريات العلم "العنصري" لم يلتجؤوا للعلم للبرهنة على عنصريتهم، بل انطلقوا منها ليبرهنوا على اختلاف الأجناس. وكما كانت عليه الحال بالأمس، فإن الأمر يتعلق في عصرنا هذا بالرغبة العميقة في الاستمرار في السيطرة على العالم من طرف نخبة من البيض، التي تعتقد بأنها سامية (حميد لشهب، 2020)، كما أن بعض السياسات تلجأ إلى سياسة تحسين الجنس والنسل بالاعتماد على نتائج البيولوجيا الجينية للحفاظ على الصدارة البشرية من حيث معدل الذكاء والتفوق والقوة داخل المجتمعات، كما هو مدرج في قضية اليوجينيا والتحسين الجيني، بوصفه مغايرة وتطور جديد للكائن وهو لا يعد إلا صيرورة عن مقولة التقدم المعبر عن افق الحداثة، خاصة السعادة، الذي إذا ما اجتمعت مع التقدم تفسر آمال البشرية الحديثة في سعيها إلى امتلاك القدرة من أجل تحصيل الكمال الجسدي (بوحناش نورة، 2017، صفحة 258).

كما أن آليات الاختيار الجيني هي وسيلة منجزة وعمل اجرائي فاعل، للإطالة على أفق انساني يصبو إلى الكمال ليس فقط من الناحية الجينية التي تبحث عن تركيبة نقية ولكن من الناحية الشخصية وهذا بواسطة انتقاء جين الذكاء واستثمار قدرات العقل واعداد جنين وفقاً للطلب وذو معايير عالية (بوحناش نورة، 2017، صفحة 278)، كما أن الاستنساخ يهدف إلى تحقيق حلم الإنسان الكامل كالحلم النازي في جيش قوي يقهر كل شعوب العالم من خلال اختيار جيناتهم بعناية (بوحناش نورة، 2017، صفحة 279)، لأن المجتمعات الحالية تسعى إلى التقدم وسعادة الإنسان من خلال دمج صفات جديدة في جيناته لكي يصبح إنساناً ذا قدرات فائقة ومتطورة وبالتالي تجعل منه إنساناً جديداً يختلف عن الذوات الأخرى ويصبح حينئذ هو الأفضل عن باقي الشعوب وبالتالي ستكرس لعنصرية من نوع آخر وهي عنصرية بيولوجية تعمل على نشر العنف والكراهية بين الشعوب من خلال عودة خطاب العنصرية بشكل جديد.

4. السياسة الحيوية والاهتمام العرقي:

ارتبط هذا المفهوم ارتباطاً وثيقاً بمتغيرات الراهن، حسب عمل السياسات التي كانت تلجأ لعدة وسائل لضبط المجتمعات والتحكم فيها، أما في الوقت الحالي فقد أصبحت السياسات تقدم عناية خاصة بالأفراد من خلال الاهتمام بصحتهم ونمط عيشهم بصفة عامة، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى أغراض سياسية بحتة، لأن العناية بالفرد والمجتمع تحقق الرفاه والاستقرار للدولة، على حساب بقية المجتمعات مما قد يولد عنصرية بحتة، يكون العنصر الحيوي محركها الأول

ويشكل مفهوم السياسة الحيوية محورا مهما في فلسفة ميشيل فوكو، لأنه يرتبط بالواقع المعاصر ارتباطاً وثيقاً، ويشخص معاناة الإنسان الذي أصبح يتحكم فيه ويستبعد عن طريق جسده، لكن هذه المرة من خلال تركيبته الداخلية البيولوجية، وليس عن طريق الاعتقال والتعذيب وغيرها.

اذن سيجعل ميشيل فوكو طابعا بيولوجيا للسلطة السياسية، داخل المجتمعات الحديثة، وهو ما اصطلح عليه بالبيو سياسة، وهي نوع من السياسات تمارسها الدولة الحديثة، غايتها احكام القبضة على الأفراد، عبر برنامج حيوي منظم، يقصد به السيطرة، ثم تدجين الأفراد حسب مقتضى الأيديولوجيا (بوحناش نورة، 2017، صفحة 224).

فقد كانت الانطلاقة بطبيعة الحال من عند فوكو عبر الثورة التي قدمها في هذا المفهوم، ولكن نجد هذا المفهوم عبر عدة مستويات، اذ أصبح هناك انفجار خطابي لمفهوم السياسة الحيوية أو السلطة الحيوية، في الفكر السياسي والاجتماعي المعاصر، عبر عدة دراسات وتأويلات تستخدم هذا المفهوم (النواوي بغورة، 2022، صفحة 10)، إذن هذا المفهوم هو مفهوم يعبر عن متغيرات الراهن، وعن طريقة عمل المجتمعات الحالية عبر عدة مستويات.

إن هذه السلطة أو السياسة الحيوية هي عدد من الظواهر التي تبدو جد مهمة، من خلال مجموعة الميكانيزمات التي من خلالها أصبحت السمات البيولوجية الأساسية للنوع الإنساني، موضوعا لاستراتيجية سياسية ما، لاستراتيجية عامة للسلطة، تعبر عن طريقة اتخاذ المجتمعات الغربية الحديثة ابتداء من القرن الثامن عشر جانب الحقيقة البيولوجية في أن الكائنات البشرية هي بمثابة نوع انساني (حسين بوبكر، 2018، صفحة 59).

كما تعني السياسة الحيوية حسب قول فوكو "اهتمام السلطة بالإنسان بوصفه كائنا حيا، أي حدوث نوع من الدولة للبيولوجي، أو على الأقل حدوث اتجاه لما يمكن أن نسميه بدولنة البيولوجي" (ميشيل فوكو، 2003، صفحة 233) أي أن الدولة اتجهت إلى الاهتمام بالبيولوجيا المخبرية أو الحياتية عن طريق اقحام نفسها في حياة الإنسان باعتباره نوع انساني يعيش في جماعات، يتكاثر وينمو ويمرض.. بالتالي أصبحت الدولة مراقبا لهذه التفاصيل الحياتية، أي العناية بالإنسان عناية تامة كما لم يسبق لها ذلك.

يرى فوكو أن هذه العمليات التي ترتبط بالسياسة الحيوية تهتم بالنوع البشري، من خلال مجموعة العمليات والإجراءات أو العمليات الخاصة بالولادة والوفاة ومعدل الخصوبة والانجاب، اذ شكلت هذه العمليات اتصال وترابط مع عدد من المشكلات الاقتصادية والسياسية (ميشيل فوكو، 2003، صفحة 236)، إذ تهتم الدول بمجموعة من العمليات التقنية والدقيقة، فكونها تمتاز بالدقة لأنها تستند على علوم من قبيل علم الإحصاء والديمغرافيا والبيولوجيا من أجل ضبط توزيع السكان والمواليد والوفيات ضبطا دقيقا لكي تكون الدولة على دراية بسكانها، ومن ثم تتخذ التدابير اللازمة، سواء من ناحية الرغبة في زيادة عدد السكان، أو وضع حد للانفجار السكاني كما فعلت الصين على سبيل المثال، التي اعتمدت على سياسة تحديد النسل، لأن الانفجار السكاني يؤدي الى اصطدام السكان ويخلق نوعا من الفوضى، ولا يحصل كل فرد على حياة كريمة، الأمر الذي منعه الدولة بغية الحصول على حياة مثالية للسكان.

وقد ركز فوكو على فكرة ارتباط البيولوجيا بالسياسة في الفترة الحديثة، قائلا: "إنه لأول مرة في التاريخ ينعكس الشكل البيولوجي في الشأن السياسي، اذ لم يعد واقع العيش هو ذلك الاس المتعذر بلوغه الذي لا يظهر الا من وقت الى اخر في صدفة الموت وحتميته، بل انتقل الى ميدان رقابة المعرفة وتدخل السلطة" (ميشيل فوكو، تاريخ الجنسانية الجزء الأول: إرادة المعرفة، 1990، صفحة 144)، فقد أصبح التدخل في الانسان ممكنا بل حتى التدخل في ولادته ووفاته، اللذان كانتا أمرين طبيعيين، فقد صارا بفعل التقانات الحديثة لعبة في ايادي السلطات، التي تهئ الظروف المناسبة للحمل ان كان مستعصيا، ان كانت حاجتها في ذلك ملحة، كما توفر خيار الموت لمن أراد ذلك، كما أنها تحيي وتميت استنادا للبيولوجيا.

تستند السياسة الحيوية على شعار "يجب الأخذ بعين الاعتبار الحياة والعمليات البيولوجية المختلفة للإنسان-النوع، وضمائها بآلية تنظيمية (ميشيل فوكو، 2003، صفحة 238)" فالدولة تعمل على تنظيم الحياة، وتنظيم السكان لكي يسهل لها معرفة التفاصيل المختلفة، كمعرفة الوفيات والأمراض، الخ، ليتسنى لها تحديد اليد العاملة التي تنفعها في أعمالها وفي مشاريعها، لهذا فالصحة في السياسة الحيوية ترتبط باليد العاملة، لنستحضر هنا نظرية تحسين النسل الأفلاطونية والتي مفادها أن تهتم الدولة بالفرد القوي وتهمل الضعيف وأصحاب العاهات، وتركز على تزاوج القوي بالقوي خاصة الجنود، لكي يكون للدولة فيما بعد أفراد أقوياء لحمايتهم، فهي تعتني بهم في البداية، ليكونوا لها دخرا سياسيا وطاقا بشرية فيما بعد.

كما تهتم السياسة الحيوية بالأمراض والابوئة، خاصة التي لا يسهل اقتلاعها ومعالجتها، اذ انها لا تشكل اوبئة فقط بل تتسبب بالموت، وبنقص الإنتاج وبالعلاج المكلف، الأمر الذي جعل من المرض

ظاهرة سكانية، بوصفه موتاً دائماً يتسرب إلى الحياة لينخرها ويضعفها باستمرار (ميشيل فوكو، 2003، صفحة 236)، تتجنب السياسة الحيوية الوقوع في باثولوجيا الأمراض، فهي تضع سياسات صحية لكي تتخلص من المرض، من قبيل التعليمات الوقائية، ونشر ثقافة النظافة في المحيط، لأن المرض إذا تفاقم في مجتمع ما، فسيهلكه، وتخسر الدولة الكثير من الخسائر المادية والبشرية، وكذلك تفقد اليد العاملة التي تحتاجها في سير عجلة اقتصادها، إضافة إلى ذلك تحاول السياسة الحيوية توفير الأمن للمواطنين داخل الأقاليم لكي تكون الحياة لها استمرارية بشكل هادئ يخلق الجو المناسب للتنظيم الذي تحتاجه الدولة، وتتخوف بطبيعة الحال من الوباء لأنه مخرب للطبيعة البشرية، ففي سياسة الاعتناء الخاصة بها توفر كل التدابير لحماية الأفراد، وقبض سلطتها عليهم بالوباء في ذات الوقت.

5. خاتمة:

حين ننظر في تاريخ العلاقة بين العلم والإنسان، يظهر لنا بجلاء أن العلاقة لم تكن دائماً علاقة بريئة أو متوازنة، بل إنها في الكثير من الأحيان خرجت عن كونها علاقة بحث وفهم وتفكر إلى علاقة سيطرة وتسلط وتبعية، خصوصاً عندما تحول العلم مع ثورة الذكاء الاصطناعي إلى أداة أيديولوجية لا أخلاقية. وخير مثال على ذلك هو الموضوع الذي تطرقنا له في مقالنا أي ظاهرة العنصرية البيولوجية، التي تعتبر أحد أخطر أشكال توظيف العلم لتكريس التمييز العرقي بين البشر، وتسعى إلى ترسيخ فكرة تفوق عرق على حساب عرق آخر.

والباحث المهتم بشأن موضوع العنصرية البيولوجية يعرف أولاً أن مصطلح العنصرية ليس حديث النشأة بل هو قديم وله جذور ومنايع متعددة، وقد تطور عبر العصور وارتبط بعدة ميادين أهمها الميدان العلمي، إذ تعززت العنصرية البيولوجية مع التقدم العلمي الحديث الذي يعد بتغيير واعد للإنسانية وتحقيق حلم الإنسان الكامن في فلسفة التقدم ألا وهو السعادة والكمال، خاصة مع الثورة الجينية الحديثة والتي تحركها الدولة وتتحكم في زمام الأمور وبالتالي تسعى كل دولة إلى التحسين الجيني للأفراد وبالتالي تنتشر عنصرية بوجه آخر مما يكرس الغرور لدى بعض الأفراد وانتشار العنف والاستبداد وسيطرة القوي على الضعيف وينتشر بذلك خطاب الكراهية وسط الأعراق أي كره الأجانب والضعفاء والتغني بالقوى الغير طبيعية التي منحهم إياها التقنية وبالتالي اعلان حرب الكل ضد الكل.

من خلال كل هذا مثلت هذه العنصرية على امتداد قرون مرآة عاكسة لانحرافات عميقة في مسار العلم حين ابتعدت عن البعد الإنساني، وسمحت بتحويل الإنسان من كائن فاعل (ذات) إلى كائن مفعول به متحكم فيه (موضوع)، وكل هذا انطلاقاً من مرجعيات عرقية عنصرية.

لقد أردنا من خلال مقالنا هذا كيف أن العنصرية البيولوجية لم تكن مجرد اجتهادات علمية، بل كانت تحمل في طياتها الكثير من الأسى للإنسان، بل قل الكثير من الانحرافات للإنسان عندما اعتبرت العرق أساسا للتفضيل بين الشعوب، إنها لم تتوقف عند هذا الحد بل ساهمت في ترسيخ وتكريس فكرة العنصرية مدخلا للاستعمار والإقصاء باسم العلم والمعرفة، وكان ذلك عبر نظريات واهية تدعي تفوق جنس على جنس وعرق على عرق، ولم تتعامل مع الإنسان ككائن يفكر له عقل ويستطيع أن ينتج بعيدا عن كل أيديولوجية مقبولة، الجنس الآري، الأبيض، الأوروبي... إلى غير ذلك من التسميات... كلها تسميات لم تكن من أجل الإنسان وتقدمه، بل إن غرضها هو الانتصار لعرق على حساب عرق آخر، وبذلك فهي تكريس للعنصرية لا تكريس وترسيخا للعلم والإنسانية.

لقد حاولنا من خلال هذا المقال أن نبين أن العنصرية البيولوجية لم تأتي من عدم بل لها أسبابها ومعطياتها التي أظهرتها، وما لبعض المفاهيم التي تطرقنا لها كالعرق الآري، والذكاء الوراثي إلا لتبيين أن الغرض لم يكن علما بل كان عنصرية.

بل يمكن القول إن أخطر أشكال الاستبداد ليس فقط استبداد الدولة أو السلطة، بل استبداد "العلم حين يُقدّم كحقيقة مطلقة"، لا تقبل النقاش ولا التشكيك. ومن هنا جاءت ضرورة إعادة النظر في الحدود التي تفصل بين "المعرفة" و"الأخلاق"،

وقد أبرزنا كذلك أن التصدي للعنصرية البيولوجية لا يمكن أن يكون فقط عبر تشريعات قانونية أو خطابات سياسية، بل يقتضي إصلاحا عميقا في بنية التفكير العلمي نفسه، لأن العلم حين ينزع من سياقه الأخلاقي ويمنح سلطة مطلقة لتصنيف الإنسان يتحول إلى أداة قمع خطيرة، لذا فضرورة استعادة البعد الإنساني للعلم ضروري جدا لترسيخ قيم العدالة والكرامة، التسامح والتعايش، التعاون والاعتراف، لأن بقاءنا متفرجون أمام مفاهيم عرق أفضل من عرق من شأنه أن يزيد الهوة بين الشعوب، ويزيد العنصرية، ويزيد من التفريق بين الإنسان والإنسان، كل هذا فرض علينا كتابة هذا المقال بغية فضح الانحيازات التي تمارس ضد الإنسان باسم العلم.

وعليه يجب أن يعلم المختصون أن العنصرية ليست مجرد ظاهرة عرقية، بل يمكن أن تجد لها وجوها جديدة في عصرنا من خلال خطاب الذكاء الصناعي، والثورة الرقمية، والتقنية، والخوارزميات...، التي قد تحمل في أعماقها انحيازات في جوهرها لكن تظهر العكس، وهذا يعني أن العنصرية البيولوجية تبيئ لنفسها أشكالا أخرى أكثر خطورة من سابقتها، وعليه فحضور الوعي النقدي لمثل هذه الأشكال من شأنه أن يفضح كل الخلفيات المختبئة وراء كل عنصرية تدعي العلم.

من هنا، نقترح في نهاية هذا البحث جملة من التوصيات:

- تشجيع البحث الأكاديمي متعدد التخصصات الذي يجمع بين العلم والتاريخ والفلسفة والأخلاق من أجل بناء معرفة متكاملة ومتحررة من الهيمنة العرقية والثقافي.
- إعادة النظر في خطاب الحياد العلمي الذي كثيرا ما تم توظيفه لتبرير الاستعمار والاستبعاد.
- التأكيد على أن كل إنتاج علمي يجب أن يكون خاضعا للمساءلة الأخلاقية والقانونية.
- تفكيك شبكة العلاقات التي تربط بين العنصرية والعلم، بين العقل العلمي والميل الإيديولوجي. والسعي الى العمل جماعات وأفرادا إلى إعادة الاعتبار للعلم الإنساني.

في الختام نؤكد أن استعادة العلاقة السليمة بين العلم والإنسان لا تمر عبر نفي العلم أو محاربته، بل عبر تحريره من التوظيف الإيديولوجي، وإخضاعه دوماً للمساءلة الأخلاقية، حتى لا يتحول مجددا إلى أداة تدمير بدل أن يكون وسيلة فهم وتحقيق للعدالة الإنسانية، فكما لا يمكن للإنسان أن يحيا بلا معرفة لا يمكن للمعرفة أن تحيا بلا إنسان.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1. الزواوي بغورة. (2022). السياسة الحيوية من منظور الفلسفة الاجتماعية. ط1. بيروت لبنان: دار سؤال للنشر.
2. بوحناش نورة. (2017). البيواتيقا والفلسفة من الانسان الفائق الى الانسان المتزكي. ط1. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للفكر والابداع.
3. جبايلي، ع. (2019). فتحي المسكيني: الكراهية ثقب أسود يمتص كل ما هو إيجابي ويلفظه في شكل فراغ أخلاقي مرعب. المغرب: مؤمنون بلا حدود 2. Récupéré sur <https://www.mominoun.com/tags/6673?page=2>
4. حسين بوبكر. (2018). ميشيل فوكو والسلطة الحيوية، دراسة تحليلية نقدية. ط1. الجزائر، لبنان: ابن النديم للنشر والتوزيع، دار روافد الثقافية.
5. حمادي محمد. (2021). خطاب الكراهية وحرية التعبير المنفلتة في وسائل الاعلام، تأليف جماعي، خطاب الكراهية. ط1. جامعة مستغانم الجزائر.
6. حمدي شيرازاد. (2021). خطاب الكراهية في الحقل الفلسفي بين البناء والهدم. ط1. جامعة مستغانم الجزائر: مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم.
7. حميد لشهب. (2020). تموز 19. (بنيات الفكر العنصري في الفكر الغربي ونتائجه. الميادين Récupéré sur <https://www.almayadeen.net>
8. عطية عبد الرزاق عماد. (2021). خطاب الكراهية وعلاقته بالأديان، تأليف جماعي، خطاب الكراهية. ط1. جامعة مستغانم، الجزائر: مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم.

9. ليفونتين ريتشارد. (2019). البيولوجيا عندما تصبح ايديولوجيا). تر: فهد عبد العزيز وأسامة خالد، الكويت: رواسخ للنشر والتوزيع.
10. ماكس فيبر. (2011). العلم والسياسة بوصفهما حرفة. ط1. تر: جورج كتورة، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
11. موسوعة الهولوكوست. (2022). العنصرية النازية. موسوعة الهولوكوست. Récupéré sur <https://encyclopedia.ushmm.org/ar>
12. ميشيل فوكو. (1990). تاريخ الجنسانية الجزء الأول: إرادة المعرفة. تر: ج. ا. صَفَدي، بيروت لبنان: مركز الانماء القومي.
13. ميشيل فوكو. (2003). يجب الدفاع عن المجتمع. ط1. تر: الزواوي بغورة، بيروت لبنان: دار الطليعة.